مناهج تقريبية

مبادئ أساسية فكرية وعملية في التقريب بين المذاهب[1]

الاستاذ الدكتور يوسف القرضاوي*

أدب الصحوة الاسلامية يتجه أبدا الى التقريب . لأنه ينظر الى الاسلام نظرة شمولية لا ناقصة .. نظرة إنسان يحمل هموم الاسلام.. لاهموم الارتزاق باسم الاسلام. ولقد رأينا روّاد الصحوة المعاصرين يتحدثون عن التقريب بين المذاهب الاسلامية بلغة واحدة، لاتكاد تفرق في هذا المجال بين لغة حسن البنا وسيد قطب والامام الخميني والامام الخامنئي والامام الصدر ومحمد الغزالي ...

ينطلق القرضاوي في ورقته هذه من تجاربه الثرّة في الدعوة، ومن روحه المتوهجة المتوقّدة المتطلعة الى عزّة المسلمين، كما ينطلق أيضا من سلفيّة واعية منفتحة قائمة على أساس فهم معمّق -لا سطحي- للقرآن والسنّة. نقدّم القسم الاول من هذا البحث الى القراء ويضمّ ثلاثة من المبادئ الاساسية الفكرية والعملية في التقريب بين المذاهب الاسلامية، وسيطالع القارئ في العدد القادم -بإذن الله- بقية هذه الاسس.

١- ورقة قدمت الى الندوة الثانية للتقريب بين المذاهب الاسلامية. الرباط ١٢ - ١٤ ربيع الثاني ١٤١٧هـ.

*- باحث وداعية اسلامي كبير، واستاذ الدراسات الاسلامية في جامعة قطر.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذه الورقة تتحدث عن مبادئ أساسية للتقريب بين أبناء هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وبوأها مكانة الأستاذية للبشرية، حين قال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1].

وقد وحد الله هذه الأمة بحكم العقيدة الواحدة، والقبلة الواحدة، والوجهة الواحدة، فهي أمة ذات هدف واحد، ولهذا حذرها ربها أن تهجر صراط ربها، إلى مناهج البشر، فتتفرق بها السبل يميناً وشمالاً، ويضيع منها الطريق، بل قد يضيع منها الهدف ذاته. يقول تعالى: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فَتفرّق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[2].

ولقد رأينا أعداء الأمة قديماً وحديثاً، يكيدون لها كيداً، حتى يفرقوا شملها الملتئم، ويمزقوا وحدتها الجامعة، فتضعفها الفرقة، فيسهل عليهم الغلبة والهيمنة عليها، والتحكم في مصائرها.

ولقد لاحظنا هذه السياسة في عصرنا واضحة كالشمس في رابعة النهار، فقد كان شعار الاستعمار من قديم: «فرق تسد»، ولا يزال ورثة الاستعمار القديم، وكل القوى المعادية للإسلام في المشرق والمغرب، يجهدون جهدهم للتفريق بين أبناء القبلة الواحدة بشتى الطرق، ومنها: إحياء الخلافات القديمة، وخلق خلافات جديدة.

ومن ذلك: صب النار على الخلافات المذهبية، وقذف الوقود لها حتى تظل متأججة، ولاسيما بين السنة والشيعة، فإن لم يوجد في بلد هذا الخلاف، أُوجد خلاف آخر، أو استُغِلَّ خلاف قائم، كالخلاف بين السلفية والصوفية، والخلاف بين المذهبيين واللامذهبيين، والخلاف بين المجددين والمقلدين... الخ.

١-البقرة/١٤٣.

٢-الأنعام/١٥٣.

والواجب على الدعاة المخلصين والمفكرين الصادقين أن يتنبهوا إلى هذه المكايد، ويسدوا الطرق إليها، ويعملوا على لم شمل الأمة وجمع صفوفها، وتوجيه أسلحتها إلى أعدائها، لا إلى صدور بعضها لبعض، ويشدوا أزر الأخوة الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فحرام أي حرام أن يتكتل أهل الباطل، ويتفرق أهل الحق، وأن يوالي الذين كفروا بعضهم بعضاً، ويعادي الذي آمنوا بعضهم بعضاً، وهو ما حذر منه القرآن حين قال: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾[1].

لهذا رحبت بالمشاركة في «ندوة التقريب بين المذاهب» وقدمت هذه الورقة لإرساء مبادئ أساسية: فكرية وعملية للتقريب المنشود، وأرجو أن ينفع الله بها، وأن يجمع كلمة أمتنا على الهدى وقلوبها على التقى، وأنفسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، إنه سميع مجيب.

مبادئ أساسية للتقريب بين المذاهب

١- وحدة الأمة فريضة وضرورة

أول المبادئ التي يجب أن نقررها هنا: وحدة هذه الأمة، فهي أمة واحدة: ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وشعائرها واحدة، وشريعتها واحدة، وآدابها ومصيرها واحد، وعدوها واحد.

وقد أمر الله تعالى الأمة بالاتحاد والائتلاف، ونهاها عن التفرق والاختلاف، فقال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[2] ونبههم على ما يوحد كلمتهم ويجمع صفهم، وهو الاشتغال بالدعوة والأمر والنهي: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[3] وحذرهم من الوقوع فيما

١- الأنفال / ٧٣.

٢- آل عمران / ١٠٣.

٣- آل عمران / ١٠٤.

أهلك الامم من قبلهم، فقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[1] كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[2]، ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[3]، ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[4].

كما أمر الرسول الكريم ﷺ الأمة بالاتحاد والترابط والتراحم والتعاضد فيما بين بعضهم وبعض، كما في الحديث المتفق عليه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك أصابعه[5]. وقال: «ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[6]. وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[7]. «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم الله، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[8]، ويقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[9]. «لاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[10]. «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[11].

وهناك الأحاديث التي حثت على الارتباط بالجماعة، وأن يد الله مع الجماعة، ومن شذشذ في النار، وأن الذئب إنما يأكل الغنم الشاردة.

١- آل عمران / ١٠٥.
٢- الحجرات / ١٠.
٣- الانبياء / ٩٢.
٤- المؤمنون / ٥٢.
٥- متفق عليه عن أبي موسى، *اللؤلؤ والمرجان* (١٦٧٠).
٦- متفق عليه عن النعمان بن بشير، *اللؤلؤ والمرجان* (١٦٧١).
٧- متفق عليه عن ابن عمر كما في *صحيح الجامع الصغير* (٦٧٠٧).
٨- متفق عليه عن أنس كما في *صحيح الجامع الصغير* (٧٢٠٠).
٩- رواه أبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو، وحسنه في *صحيح الجامع الصغير* (٦٧١٢).
١٠- رواه البخاري عن ابن مسعود. *صحيح الجامع الصغير* (٧٢٥٥).
١١- متفق عليه عن جرير وعن ابن عمر: *اللؤلؤ والمرجان* (٤٤ - ٤٥).

وكل هذه النصوص تؤكد أن وحدة الأمة فريضة لازمة، كما أنها ضرورة حاسمة، فهي فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، وخصوصاً في عصرنا هذا.

حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

قد يشوش على الوحدة المفروضة والمنشودة، حديث اشتهر في الكتب: كتب السنة، وكتب العقائد، وكتب الفرق، وتناقله الناس بعضهم عن بعض حتى اعتقدوا - لشيوعه وشهرته - أنه حديث ثابت لا مطعن فيه، مع أن الشهرة لا تلازم الثبوت والصحة. ذلكم هو حديث افتراق الأمة إلى فرق فوق السبعين، كلها في النار إلا واحدة، وهو حديث يوحي ظاهره بأن الفرقة أبدية في الأمة، وأنها قدر مكتوب عليها، لا فكاك منه. وينبغي أن نبحث بموضوعية وحياد في هذا الحديث، من ناحية ثبوته، ومن ناحية دلالته إن ثبت.

قيمة الحديث من ناحية سنده:

أ) فأول ما ينبغي أن يعلم هنا أن الحديث لم يرد في أي من الصحيحين، برغم أهمية موضوعه، دلالة على أنه لم يصح على شرط واحد منهما. وما يقال من أنهما لم يستوعبا الصحيح، فهذا مسلم، ولكنهما حرصا على ألا يدعا باباً مهما من أبواب العلم إلا ورويا فيه شيئاً ولو حديثاً واحداً.

ب) إن بعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة، وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط. وهذا هو حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم، وفيه يقول: «افترقت اليهود على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى - أو اثنتين - وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[1].

١- أبو داود في السنة برقم (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة في الفتن مختصراً (٣٩٩١) وابن حبان، كما في الإحسان (٦٢٤٧/٦٧٣١) والحاكم (١/٦) وصححه على شرط مسلم ورده الذهبي.

والحديث - وإن قال فيه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم - مداره على محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، ومن قرأ ترجمته في «تهذيب الكمال» وفروعه[1] علم أن الرجل متكلم فيه من قبل حفظه، وأن أحدا لم يوثقه

١- يحسن بنا أن نذكر هنا نبذة عنه مما نقله الحافظ المزي في تهذيب الكمال عن أئمة الجرح والتعديل: سأل عنه علي بن المديني: يحيى بن سعيد بن القطان: محمدبن عمرو كيف هو: قال: تريد العفو أم تشدد؟ قال: لا بل أشدد. قال: ليس هو ممن تريد. كان يقول: حدثنا أشياخنا أبو سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. قال يحيى: وسألت مالكاً عن محمد بن عمرو فقال: فيه نحواً مما قلت لك.

وقال إسحاق بن حكيم: قال يحيى القطان: وأما محمد بن عمرو فرجل صالح، ليس بأحفظ الناس للحديث.

وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين: أنه سئل عن محمد بن عمرو، ومحمد بن إسحاق أيهما يقدم؟ فقال: محمد بن عمرو.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: سئل يحيى بن معين عن محمد بن عمرو، فقال: مازال الناس يتقون حديثه، قيل له: وما علة ذلك؟ قال: كان يحدث مَرة عن أبي سلمة بالشيء من رأيه ثم يحدث به مرة أخرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة.

وقال إبراهيم بن يعقوب السعدي الجوزجاني: ليس يقوي الحديث، ويستهي حديثه.

وقال أبو حاتم: صالح الحديث، يكتب حديثه، وهو شيخ.

وقال النسائي: ليس به بأس. وقال في موضع آخر: ثقة.

وقال أبو أحمد بن عدي: له حديث صالح، وقد حدث عنه جماعة من الثقات كل واحد منهم ينفرد عنه بنسخة، ويغرب بعضهم على بعض، ويروي عنه مالك غير حديث في «الموطأ»، وأرجو أنه لا بأس به.

وذكره ابن حبان في كتاب «الثقات»، وقال: كان يخطئ: أ هـ. انظر: *تهذيب الكمال* ٢٦/ ٢١٥ - ٢١٧. فمثل هذا الراوي - بعدما قرأنا ما قيل فيه - لايؤخذ عنه حديث خطير يكون هو العمدة فيه، والمعول عليه، مثل حديثنا هذا.

بإطلاق، وكل ما ذكروه أنهم رجحوه على من هو أضعف منه. ولهذا لم يزد الحافظ في *التقريب* على أن قال: «صدوق له أوهام. والصدق وحده في هذا المقام لايكفي مالم ينضم إليه الضبط، فكيف إذا كان معه أوهام؟».

ومعلوم أن الترمذي وابن حبان والحاكم من المتساهلين في التصحيح، وقد وصف الحاكم بأنه واسع الخطو في شرط التصحيح.

وهو هنا صحح الحديث على شرط مسلم، باعتبار أن محمد بن عمرو احتج به مسلم، ورده الذهبي بأنه لم يحتج به منفرداً، بل بانضمامه إلى غيره[1].

على أن هذا الحديث من رواية أبي هريرة ليس فيه زيادة: أن الفرق «كلها في النار إلا واحدة» وهي التي تدور حولها المعركة.

وقد روي الحديث بهذه الزيادة من طرق عدد من الصحابة: عبد الله بن عمر، ومعاوية، وعوف بن مالك، وأنس، وكلها ضعيفة الإسناد، وإنما قووها بانضمام بعضها إلى بعض.

والذي أراه أن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها ، فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه، وخصوصاً المتقدمين، كما يبدو ذلك في كتب التخريج، والعلل، وغيرها! وإنما قد يؤخذ بها فيما لا معارض له، ولا إشكال في معناه.

وهنا إشكال أي إشكال: في الحكم بأن التفرق قدر حتمي مكتوب على الأمة لافكاك لها منه، وكذلك الحكم بافتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من قبل، وبأن هذه الفرق كلها هالكة في النار إلا واحدة منها! وهو يفتح باباً لأن تدّعي كل فرقة أنها الناجية، وأن غيرها هو الهالك، وفي هذا مافيه من تمزيق للأمة وطعن بعضها في بعض، مما يضعفها جميعاً، ويقوي عدوها عليها ويغريه بها.

ولهذا طعن العلامة ابن الوزير في الحديث عامة، وفي هذه الزيادة خاصة، لما

١-*المستدرك* ٦/١ وفي موضع آخر ١٢٨/١ أقره الذهبي، وهذا يتكرر كثيراً في تلخيصه، فلعله غفل عما ذكره من قبل، أو اكتفى به. ومن المعلوم أن البخاري أيضا روى لمحمد بن عمرو ولكن مقروناً بغيره معلقاً، كما في مقدمة *الفتح* فكان يمكن للحاكم على طريقته أن يقول: على شرطهما.

تؤدي إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض، بل تكفيرها بعضها لبعض.

قال ﷺ في *العواصم* وهو يتحدث عن فضل هذه الأمة، والحذر من التورط في تكفير أحد منها، قال: «وإياك والاغترار بـ«كلها هالكة إلا واحدة» فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة».

قال: «وعن ابن حزم: أنها موضوعة، غير موقوفة ولا مرفرعة. وكذلك جميع ما ورد في ذم القدرية والمرجئة والأشعرية، فإنها أحاديث ضعيفة غير قوية»[1].

ج) إن من العلماء قديماً وحديثاً من رد الحديث من ناحية سنده ، ومنهم من رده من ناحية متنه ومعناه[2].

فهذا أبو محمد بن حزم، يرد على من يكفر الآخرين بسبب الخلاف في

١-*العواصم والقواصم* ١٨٦/١.

٢-وفي متن هذا الحديث إشكال من حيث إنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس، ووصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس، أسوأ من اليهود والنصارى في مجال التفرق والاختلاف ، حتى إنها زادت في فرقها على كل من اليهود والنصارى. هذا مع أن القرآن قال في شأن اليهود: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ (المائدة / ٦٤). وقال في شأن النصارى: ﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ (المائدة/١٤). ولم يجئ في القرآن عن أمة الإسلام شيء يشبه هذا، بل فيه التحذير أن يتفرقوا ويختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم.

والحديث يعتبر الفرقة قدراً لازماً للأمة، لافكاك لها منه، وأنه الأصل، ولا مطمع لها إذن في أن تتوحد كلمتها. وهذا من أكبر الأخطار عليها: يأس الناس من التوحد والتجمع.

ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها - إلا واحدة - بأنها في النار، هذا مع ماجاء في فضل هذه الأمة، وأنها أمة مرحومة، وأنها تشمل أهل الجنة، أونصف أهل الجنة.

غير أن الخبر عن اليهود والنصارى بأنهم افترقوا إلى هذه الفرق التي نيفت على السبعين غير معروفة في تاريخ الملتين، وخصوصاً عند اليهود. فلا يعرف أن فرقهم بلغت هذا المبلغ من العدد.

الاعتقاديات بأشياء يوردونها.

وذكر من هذه الأشياء التي يحتجون بها في التكفير حديثين يعزونهما إلى رسول اللهﷺ ، هما:

١- «القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة».

٢- «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، كلها في النار حاشا واحدة، فهي في الجنة».

قال أبو محمد: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لايقول به؟[1]

وهذا الإمام اليمني المجتهد ، ناصر السنة، الذي جمع بين المعقول والمنقول، محمد إبراهيم (ت ٨٤٠هـ) يقول في كتابه «العواصم والقواصم» أثناء سرده للأحاديث التي رواها معاويةرضی اللہ عنہ، فكان منها (الحديث الثامن): حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا فرقة واحدة، قال: وفي سنده ناصبي[2]، فلم يصح عنه، روى الترمذي مثله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: حديث غريب. ذكره في الإيمان من طريق الإفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عنه.

وروى ابن ماجة مثله، عن عوف بن مالك، وأنس.

قال: وليس فيها شيء على شرط الصحيح، ولذلك لم يخرج الشيخان شيئاً منها. وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، وليس

١- *الفصل في الملل والنحل* لابن حزم، تحقيق د. إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عمير، ٣/٢٩٢، ط. دار عكاظ، جدة. وقد ذكر الشيخ الألباني في الصحيحة رقم ٢٠٤ أنه بحث عن كلام ابن حزم هذا في *الفصل* فلم يعثر عليه، وهو ذا واضح صريح.

٢- يشير إلى أزهر بن عبد الله - أو ابن سعيد - الحرازي ، الذي عرف بأنه كان يسب عليارضی اللہ عنہ وينال منه. انظر ترجمته في *تهذيب الكمال* رقم ٣١٠، ومثل هذا جدير أن يضعفه، ولا يقبل منه حديث بهذه الخطورة.

فيه «كلها في النار إلا فرقة واحدة». وعن ابن حزم: أن هذه الزيادة موضوعة، ذكر ذلك صاحب *البدر المنير*[1].

وقد قال الحافظ بن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾[2]، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»[3].

ولم يزد على ذلك، فلم يصفه بصحة ولا حسن، رغم أنه أطال في تفسير الآية بذكر الأحاديث والآثار المناسبة لها.

وذكر الإمام الشوكاني قول ابن كثير في الحديث، ثم قال: قلت: أما زيادة «كلها في النار إلا واحدة» فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة[4].

الحديث من حيث دلالته (على فرض ثبوته)

على أن الحديث - وإن حسنه بعض العلماء كالحافظ ابن حجر، أو صححه بعضهم كشيخ الاسلام ابن تيمية بتعدد طرقه - لا يدل على أن هذا الافتراق بهذه الصورة وهذا العدد، أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة، ويكفي لصدق الحديث أن يوجد هذا في وقت من الأوقات.

قد توجد بعض هذه الفرق، ثم يغلب الحق باطلها، فتنقرض ولاتعود أبداً. وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة، فقد هلك بعضها، ولم يعد له وجود.

١- *العواصم والقواصم* لابن الوزير بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، ج ٣/١٧٠ - ١٧٢ والمذكور هنا يرد على الشيخ الألباني الذي ذكره في «الصحيحة» المجلد الأول، ٣/١٩ - ٢٠أن ابن الوزير رد الحديث من جهة متنه لامن جهة سنده، ولا أدري من أين له هذا؟

٢- الأنعام / ٦٥.

٣- *تفسير ابن كثير*، ٢/٧١٤٣، طبعة عيسى الحلبي.

٤- *فتح القدير* للشوكاني في تفسير الآيات ٦٥ - ٦٧ من سورة المائدة، ٢/٥٩، ط. دار الفكر.

ثم إن الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها جزء من أمته ﷺ أعني أمة الإجابة المنسوبة إليه، بدليل قوله: «تفترق أمتي» ومعنى هذا أنها - برغم بدعتها - لم تخرج عن الملة، ولم تفصل من جسم الأمة المسلمة، وهذا ما ذكره الإمام الخطابي في «معالم السنن»، قال: فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ قد جعلهم النبيﷺ كلهم من أمته. وفيه: أن المتأول لا يخرج من الملة، وإن أخطأ في تأوله ا. هـ[1].

وكونها «في النار» لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار، بل يدخلونها كما يدخلها عصاة الموحدين.

وقد يشفع لهم شفيع مطاع من الأنبياء أو الملائكة أو آحاد المؤمنين، وقد يكون لهم من الحسنات الماحية أو المحن والمصائب المكفرة، ما يدرأ عنهم العذاب.

وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه، ولاسيما إذا كانوا قد بذلوا وسعهم في معرفة الحق، ولكنهم لم يوفقوا وأخطأوا الطريق، وقد وضع الله عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

٢- شغل المسلم بهموم أمته الكبرى

من أكثر ما يوقع الناس في حفرة الاختلاف، وينأى بهم عن الاجتماع والائتلاف: فراغ نفوسهم من الهموم الكبيرة، والآمال العظيمة، والأحلام الواسعة. وإذا فرغت الأنفس من الهموم الكبيرة، اعتركت على المسائل الصغيرة، واقتتلت - أحياناً - فيما بينها على غير شيء.

ولايجمع الناس شيء كما تجمعهم الهموم والمصائب المشتركة، والوقوف في وجه عدو مشترك، وما أصدق ما قاله أحمد شوقي:إن المصائب يجمعن المصابينا».

وإن من الخيانة لأمتنا اليوم أن نغرقها في بحر من الجدل حول مسائل في فروع الفقه أو على هامش العقيدة، اختلف فيها السابقون، وتنازع فيها اللاحقون، ولا أمل

١- *معالم السنن* ٧/ ٧، حديث(٤٤٢٩).

في أن يتفق عليها المعاصرون. في حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ومصائبها التي ربما كنا سبباً أو جزءاً من السبب في وقوعها.

وهذا ماحدا بابن عمر، رضي الله عنهما، حينما سأله من سأله من أهل العراق عن دم البعوض في حالة الإحرام، فأنكر على السائل هذا التنطع والتعمق في السؤال عن هذه الدقائق، على حين أن قومه خذلوا الحسين رضي الله عنه ، حتى سفك دمه، ولقي ربه شهيداً مرضياً.

وهكذا قال ابن عمر: هؤلاء يسألون عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ! وقد قال رسول الله ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»[1]. قال الحافظ في الفتح: أورد ابن عمر هذا متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير والتفريط في الشيء الجليل[2].

من الخيانة أن يحمى الوطيس، وتنصب المجانيق، ويتقاذف الناس بكلمات أشد من الحجارة، وأنكى من السهام، من أجل مسائل تحتمل أكثر من وجه، وتقبل أكثر من تفسير، فهي من مسائل الاجتهاد، التي دلت على سعة هذا الدين ومرونته، المصيب فيها مأجور والمخطئ فيها معذور، وخطؤه فيها مغفور، بل هو - بنص الحديث - مأجور.

لهذا كان من الواجب على الدعاة والمفكرين الإسلاميين أن يشغلوا جماهير المسلمين بهموم أمتهم الكبرى، ويلفتوا أنظارهم وعقولهم وقلوبهم إلى ضرورة التركيز عليها والتنبيه لها، والسعي الجاد ليحمل كل فرد جزءاً منها، وبذلك يتوزع العبء الثقيل على العدد الكبير، فيسهل القيام به.

إن العالم يتقارب بعضه من بعض على كل صعيد، رغم الاختلاف الديني، والاختلاف الإيديولوجي ، والاختلاف القومي، واللغوي، والوطني والسياسي.

لقد رأينا المذاهب المسيحية - وهي أشبه بأديان متباينة - يقترب بعضها من

١- الحديث رواه أحمد في مسنده في عدة مواضع (٥٨٦٥ - ٥٦٧٥) ورواه البخاري في المناقب، الحديث (٣٧٥٣).

٢-فتح الباري (٧٩١٧).

بعض، ويتعاون بعضها مع بعض.

بل رأينا اليهودية والنصرانية - على ماكان بينهما من عداء تاريخي - يتقاربان، ويتعاونان في مجالات شتى، حتى أصدر الفاتيكان منذ سنوات وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح.

ورأينا على المستوى الإيديولوجي تقارب العملاقين: أمريكا والاتحاد السوفيتي - عندما كان قائماً - فيما سمي «سياسة الوفاق». وكذلك رأينا تقارب أمريكا مع الصين.

أما أوروبا التي مزقتها الحروب والصراعات والنزاعات القومية والإقليمية والسياسية والإيديولوجية ، فهي اليوم تتقارب، ثم تتقارب حتى توشك أن تكون دولة واحدة تذوب بين أقطارها الفواصل والحدود.

رأينا هذا كله بأعيننا، ورأينا في مقابله المسلمين يتباعدون، ويتنكر بعضهم لبعض، بل يقاتل بعضهم بعضاً.

إن أبناء المسلمين في أقطار شتى يموتون - مادياً - من الجوع والمرض، ويموتون - معنوياً - بالجهل والأمية، وانتشار الخرافات، ويتعرضون لأخطار التنصير والتكفير والتضليل، فكيف لانهتم لأمرهم، ونسعى لإنقاذهم، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.

إن الأمة المسلمة لا تزرع ما تأكل من القوت الضروري، ولا تصنع ما تستخدمه من السلاح اللازم للدفاع عن الحرمان، ولا من الآلات ما يجعل لها وزناً واعتباراً. فهي كلها ضمن العالم الثالث، ولو كان هناك عالم رابع لنسبت إليه! وكثيراً ما اتهم الإسلام ظلماً بأنه سبب تخلفها ، مع أنها يوم تمسكت به كانت سيدة الأمم وأستاذة البشرية.

ولقد كتبت دراسة صدرت في كتاب عن «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» وبينت فيه أن الصحوة ليست بمعزل عن هموم هذا الوطن الكبير، إنها مشغولة الفكر والقلب بهذه الهموم، معنية بالتعرف على أسبابها والطريق إلى علاجها من صيدلية الإسلام.

وعنيت - بخاصة - تيار «الوسطية الإسلامية» الذي يفهم الإسلام فهماً شمولياً إيجابياً، جامعاً بين السلفية والتجديد، موازناً بين الثوابث والمتغيرات، بين النظرة إلى التراث والتخطيط للمستقبل.

لقد تحدثت هناك بشيء من التفصيل عن هموم سبعة أساسية هي:

١- هم التخلف العلمي التكنولوجي والحضاري.

٢- هم النظام الاجتماعي والاقتصادي.

٣- هم الاستبداد والتسلط السياسي.

٤- هم التغريب والغزو الفكري والثقافي.

٥- هم العدوان والاغتصاب الصهيوني.

٦- هم التجزئة والتمزق العربي والإسلامي.

٧- هم التسيب والانحلال الخلقي.

وهي - بلا ريب - هموم كبيرة وثقيلة، وتحتاج لمعالجتها إلى تكاتف العقول لتفكر، والعزائم لتصمم، والأيدي لتنفذ، وتستغرق من الجهود والأوقات والأموال الكثير والكثير.

ولو شئنا لأضفنا إليها هموماً وهموماً، مثل الحروب الأهلية والصراعات الإقليمية والمجاعات المهلكة، والهجمات التنصيرية الشرسة، وغيرها...

أفيسع مسلماً غيوراً على دينه، مهتماً لأمر أمته - عنده مسكة من العقل - أن يعرض وينأى بجانبه عن هذه الهموم الضخمة، ثم تراه يقوم ويقعد، ويبرق ويرعد، من أجل جزئيات علمية أو سلوكية، لا تدخل في دائرة الضروريات، ولا الحاجيات، وإنما هي كلها في نطاق التحسينات والكماليات، وفي سبيل هذه الفرعيات لا يبالي أن يمزق الشمل الملتئم، ويوقظ الفتن النائمة، ويحرّك العصبيات الساكنة.

هذا على حين يجد العالم من حولنا يتناسى الخلافات الجذرية بين بعضه وبعض، وهو ما أثمر التقارب العالمي الذي نشهده اليوم على أصعدة شتى.

لهذا يجب أن لا نشغل الناس بالمسائل الفرعية، ونقيم الدنيا ونقعدها من أجل قضايا جزئية أو خلافية، ونلهيهم بذلك عن الأصول الكلية والقضايا المصيرية.

ويدخل في هذا الموضوع: الإعراض عما لا ثمرة له، ولا طائل تحته من البحث في الموضوعات التي شغلت العقل الإسلامي فترة أو فترات من التاريخ، ثم لم يعد لها اليوم مكان.

وذلك مثل موضوع «خلق القرآن الذي احتل مساحة واسعة من التفكير الإسلامي في بعض العصور، وحميت المعركة فيه بين المعتزلة وغيرهم، واستطاع مفكرو المعتزلة أن يورطوا الدولة العباسية وخلفاءها في هذا الصراع، وأن يدخلوا معركة مع جمهور المسلمين وعلمائهم، وأئمتهم - وعلى رأسهم الإمام الرباني الصابر المحتسب أحمد بن حنبل - وأن يستخدموا الحديد والنار والسجن والتعذيب لإجبار المخالفين على ترك ما يعتقدون، وموافقتهم فيما إليه يدعون.

لقد كانت فتنة مظلمة، ومحنة قاسية، يحمل وزرها الذين وسمَوا بأنهم دعاة الحرية الفكرية.

على كل حال لهذه الفتنة ظروفها ومبرراتها في وقتها، ولكن لايوجد أي مبرر لإحيائها اليوم بوجه من الوجوه.

لهذا عجبت ممن يتحدث عن الإمامية أو الزيدية أو الإباضية أوغيرهم من الطوائف بأنهم يقولون بخلق القرآن، فما ينبغي لهذه المشكلة أن تثار عند أي من الفريقين...

إن مشكلتنا اليوم ليست مع من يقول بأن القرآن كلام اللّٰه مخلوق، بل مع الذين يقولون: القرآن ليس من عند اللّٰه، بل هو من عند محمد، أي الذين يقولون ببشرية القرآن.

ثم مشكلتنا كذلك مع الذين يؤمنون بالهية القرآن، ويرتضون بمرجعيته في العقيدة والعبادة. ولكنهم لا يرتضونه منهاجاً للحياة، ودستوراً للدولة والمجتمع، وهم جماعة «العلمانيين» الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض!

٣- التعاون في المتفق عليه

بعض الفصائل التي تنتسب إلى الصحوة الإسلامية، أو العمل الإسلامي، مهتمة

أكبر الاهتمام بالمسائل الخلافية، فهو شغلها بالنهار، وحملها بالليل.

حولها يتركز البحث، ولها تقام الدروس، وفيها يدور الجدل، ومن أجلها تحمى معارك الكلام والخصام.

وأنا لا أكره أن يبحث الناس في المسائل الخلافية، بحثاً علمياً مقارناً يرجح أحد الرأيين أو الآراء، إذا قام بذلك أهل الاختصاص، من العلماء القادرين المؤهلين لمثل هذا العمل العلمي الرصين، الجامع بين الفقه والورع والاعتدال.

ولكن الذي أكرهه: أن يصبح البحث في المسائل الخلافية أكبر همنا، ومبلغ علمنا، وأن تضخمها حتى تأكل أوقاتنا وجهودنا وطاقاتنا، التي يجب أن نوجهها لبناء ما تداعى أو تهدم من بنياننا الديني والثقافي والحضاري.

وأن يكون هذا الاهتمام والاشتغال على حساب القضايا التي لاخلاف عليها.

إنني أود لو أن رجال المسلمين جميعاً حرصوا على إطلاق لحاهم، فأحيوا هذه السنة من سنن الفطرة، وخرجوا من خلاف من أوجبها من الأئمة، وتميزوا عن غيرهم من الأمم، وفوتوا الفرصة على رجال المباحث الذين يعتبرون اللحية دليل اتهام.

ومع هذا لا أودّ أن نشغل الناس بهذا، وأن نفسق من لايعفيها، فهذا أمر عمت به البلوى، ولهذا أسفت حقاً حين ذكر لي بعض الثقاة من الشباب أن أحد المولعين بالخلافيات ألقى تسع محاضرات في وجوب إعفاء اللحية، وتحريم أخذ شي ءمنها.

كما أسفت لأن أحدهم ألف رسالة سماها «نهي الصحبة عن النزول على الركبة» وهو أمر يتعلق بهيئة الصلاة، وفيه أخذ ورد، وأن آخر كتب رسالة أيضاً بعنوان: «الواحة في جلسة الاستراحة» إلى غير ذلك من الرسائل، والمقالات والمحاضرات التي تدور حول هذه الأمور، التي اختلف فيها الأئمة، بين مثبت ونافٍ، وسيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله.

(جاری ہے)

قارئین کو عید الفطر مبارک ہو

مجلس ادارت

☆.....نیستی کہ چون گربہ عاجز شود ☆☆☆☆ برآرد بہ چنگال چشم پلنگ..... ☆